بسم الله الرحمن الرحيم

(وُلِدَ الْهُدىٰ فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ) ١٠ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ١٤٤٦هـ

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ الْعِبَادَ بِالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ فَضْلِهِ، وَمَا أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْآدَابِ الْكَرِيمَةِ الرَّضِيَّةِ، وَمَا وَهَبَهُ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَالْخَلْقِ الْحَسَنِ الْكَرِيمِ، فَجَعَلَ جَوْهَرَهُ الْكَرِيمَ عَالِيًا عَلَىٰ سَائِرِ الْأَفْرَادِ وَالْأَجْنَاسِ، بِحَيْثُ لَا يُقَاسُ بِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، كَيْفَ وَقَدْ خَصَّهُ رَبُّهُ بِأَنْوَاعِ الِاخْتِصَاصِ، فَرَبَّاهُ بِعِنَايَتِهِ، وَرَعَاهُ بِرِعَايَتِهِ، فَآوَاهُ وَهَدَاهُ وَأَغْنَاهُ، وَوَهَبَهُ التَّمْكِينَ لِتَلَقِّي الْوَحْيِ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْعِبَادَ بِاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَجَعَلَهُ آيَةَ مَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنِ ادَّعَىٰ مَحَبَّةَ اللهِ، وَلَيْسَ هُوَ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّىٰ يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ وَالدِّينَ النَّبَوِيَّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أَيْ: يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُحَبَّ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ، فَابْتَلَاهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾. وَكَيْفَ لَا يُحَبُّ ﷺ، وَقَدْ كَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقًا وَخُلُقًا، فَكَانَ أَسْلَمَ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، إِذَا صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ، كَلَامُهُ فَصْلٌ لَا نَزْرَ وَلَا

هَذْرَ، كَأَنْ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ، أَبْهَىٰ النَّاسِ وَأَجْمَلُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ، لَا تَشْنَؤُهُ عَيْنٌ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ النَّاسِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدًّا، إِذَا قَالَ اسْتُمِعَ لِقَوْلِهِ، وَإِذَا أَمَرَ ابْتُدِرَ لِأَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْنِدٌ، مُنِيرُ الْوَجْهِ، مُشْرِقُ الْمُحَيَّا، يَتَلَأْلَأُ بِالنُّورِ الْبَاهِرِ، وَالضِّيَاءِ الزَّاهِرِ، وَالْبَهَاءِ الظَّاهِرِ، لَوْ رَأَيْتَهُ لَرَأَيْتَ الشَّمْسَ طَالِعَةً، فَخْمٌ مُفَخَّمٌ، يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ.

عِبَادَ اللهِ: وَمَعَ مَا كَانَ ﷺ مِنْ جَمَالِهِ الْخَلْقِيِّ مُتَجَمِّلًا، فَكَانَتْ لَهُ حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا لِلْعِيدَيْنِ وَالْجُمُعَةِ، وَكَانَ كَمَا عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ».

وَكَانَ ﷺ حُلْوَ الْمَنْطِقِ، حَسَنَ الْكَلَامِ، إِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ، وَسَبَىٰ الْأَرْوَاحَ وَالْعُقُولَ، وَيُرَىٰ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ.

وَكَانَ ﷺ أَوْسَعَ النَّاسِ عِلْمًا، وَأَعْظَمَهُمْ فَهْمًا، أَفَاضَ اللهُ عَلَيْهِ الْعُلُومَ النَّافِعَةَ الْكَثِيرَةَ، وَالْمَعَارِفَ الْعَالِيَةَ الْوَفِيرَةَ، فَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللهِ، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، بَلْ هُوَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ عِلْمًا عليهم السلام، وَأَشْجَعُهُمْ قَلْبًا، وَكَانَ مِنْ يَقَظَةِ قَلْبِهِ ﷺ أَنْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، يَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، وَيَرْضَىٰ لِرِضَاهُ، لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، بَعَثَهُ اللهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، لَا يَقُولُ الْخَنَا، فَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَوَهَبَ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ جَلِيلٍ، وَجَعَلَ السَّكِينَةَ لِبَاسَهُ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَىٰ ضَمِيرَهُ، وَالْحِكْمَةَ مَنْطِقَهُ، وَالصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالْهُدَىٰ إِمَامَهُ، وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، أَغْنَىٰ بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَجَمَعَ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَاسْتَنْقَذَ بِهِ فِئَامًا مِنَ النَّاسِ عَظِيمَةً مِنَ الْهَلَكَةِ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مُوَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ، مُخْلِصِينَ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ

الرُّسُلُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ لُطْفًا، وَمَا سَأَلَهُ سَائِلٌ قَطُّ إِلَّا أَصْغَىٰ إِلَيْهِ، فَلَا يَنْصَرِفُ حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ السَّائِلُ، وَلَا تَنَاوَلَ أَحَدٌ يَدَهُ قَطُّ إِلَّا نَاوَلَهُ إِيَّاهَا، فَلَا يَنْزِعُ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُهَا مِنْهُ، وَكَانَ يَنْبَسِطُ مَعَ الْأَهْلِ وَذَوِي الْقُرْبَىٰ، كَرِيمَ الْعِشْرَةِ، حَسَنَ الْمُعَامَلَةِ مَعَ زَوْجَاتِهِ وَسَائِرِ أَهْلِهِ، يُلَاطِفُهُنَّ وَيُمَازِحُهُنَّ، وَيُعَامِلُهُنَّ بِالْوُدِّ وَالْإِحْسَانِ.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ كَانَ ﷺ أَطْلَقَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَكْثَرَهُمْ تَبَسُّمًا، وَأَحْسَنَهُمْ بِشْرًا، يَرُدُّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَيُرَحِّبُ بِالْقَادِمِ عَلَيْهِ، وَيَسْأَلُ عَنْ حَالِ أَصْحَابِهِ، وَيُكْرِمُ كِرَامَ الْقَوْمِ، وَيُبَاسِطُ جُلَسَاءَهُ، وَيُوَسِّعُ لَهُمْ، وَيَتَبَسَّمُ حِينَ يَلْقَىٰ أَصْحَابَهُ وَحِينَ يُحَدِّثُهُمْ.

وَكَانَ ﷺ يُلَاطِفُ الصِّبْيَانَ، وَيُكَافِئُ الْكِرَامَ، وَيُقَابِلُ الْإِحْسَانَ بِأَجْمَلِ إِحْسَانٍ، يَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ، وَيَحْفَظُ الْوُدَّ، وَيَحْتَفِظُ بِالْعَهْدِ، وَيَصْدُقُ الْوَعْدَ.

قَدِ اخْتَارَهُ اللهُ مِنْ أَنْفَسِ مَعْدِنٍ وَأَشْرَفِ مَحِلٍّ، وَأَفْضَلِ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَزَكَّاهُ بِأَكْمَلِ وَأَحْسَنِ وَأَفْضَلِ الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، وَفَضَّلَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَشَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ، وَرَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَوَضَعَ عَنْهُ وِزْرَهُ، وَاصْطَفَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، اصْطَفَاهُ فِي عَقْلِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وَاصْطَفَاهُ فِي خُلُقِهِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وَاصْطَفَاهُ فِي حِلْمِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وَاصْطَفَاهُ فِي عِلْمِهِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، وَاصْطَفَاهُ فِي صِدْقِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، وَاصْطَفَاهُ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وَاصْطَفَاهُ فِي فُؤَادِهِ، فَقَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، وَاصْطَفَاهُ فِي ذِكْرِهِ، فَقَالَ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وَاصْطَفَاهُ وَأَرْضَاهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ قَرَنَ اللهُ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ، وَمَحَبَّتَهُ بِمَحَبَّتِهِ، فَلَا يُتَعَبَّدُ اللهُ وَلَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا شَرَعَ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَيْسَ لِلْجَنَّةِ طَرِيقٌ إِلَّا طَرِيقُهُ، وَهُوَ سَبَبُ هِدَايَةِ النَّاسِ وَنَجَاتِهِمْ، وَهُوَ صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَىٰ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ.

وَقَدِ اسْتَقَرَّ فِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ، وَالْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ حُبُّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ أَخْلَاقُهُ وَتِلْكَ صِفَاتُهُ، وَاجْتَمَعَ لِنَبِيِّنَا ﷺ أَعْظَمُ حَظٍّ وَأَوْفَرُ نَصِيبٍ، فَمَحَبَّتُهُ فَرْضٌ لَازِمٌ، وَرُكْنٌ وَاجِبٌ، وَشَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الشِّفَا بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ»: فَكَفَىٰ بِهَذَا حَضًّا وَتَنْبِيهًا وَدَلَالَةً وَحُجَّةً عَلَىٰ إِلْزَامِ مَحَبَّتِهِ، وَوُجُوبِ فَرْضِهَا، وَعِظَمِ خَطَرِهَا، وَاسْتِحْقَاقِهِ لَهَا ﷺ؛ إِذْ قَرَّعَ تَعَالَىٰ مَنْ كَانَ مَالُهُ وَأَهْلُهُ وَوَلَدُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَوْعَدَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثُمَّ فَسَّقَهُمْ بِتَمَامِ الْآيَةِ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ مِمَّنْ ضَلَّ، وَلَمْ يَهْدِهِ اللهُ. اهـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَاعَةٌ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَقَدْ ضَرَبَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي مَحَبَّتِهِ وَتَقْدِيرِهِ؛ فَقَدْ خَالَطَ سُلَافُ مَحَبَّتِهِ شِغَافَ قُلُوبِهِمْ، وَتَمَلَّكَ أَفْئِدَتَهُمْ وَمَشَاعِرَهُمْ، فَتَرْجَمُوا ذَلِكَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَقَدَّمُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْغَالِيَ وَالنَّفِيسَ، وَلَعَلَّنَا نَأْخُذُ مِثَالًا وَاحِدًا عَلَىٰ ذَلِكَ؛ كَيْ لَا يَطُولَ الْمُقَامُ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ [أَيْ: مُتَتَرِّسٌ عَلَيْهِ يَقِيهِ بِالتُّرْسِ]، قَالَ: وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَامِيًا، شَدِيدَ النَّزْعِ، وَكَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ: فَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ: «انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ»، قَالَ: وَيُشْرِفُ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْقَوْمِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَا تُشْرِفْ، لَا يُصِبْكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ.